الإمـــام الخضـــر حســـين

(١٢٩٣-١٣٧٧هـ=١٨٧٦-١٩٥٨م)

المهاجر

بدينه ونضاله

obeikandl.com

هذا الرجل من عظماء الجهاد الفكرى، مؤمن صادق فى إيمانه، مجاهد أخذ على عاتقه مهمة الحفاظ على حرية الكلمة، ومقاومة حركات المسخ والتغريب التى تعرض لها الإسلام، وكان من أخطرها ما جاء على يد أبنائه من أمثال «على عبد الرازق» و«طه حسين».

هذا الشيخ آمن بالإسلام ودعوته، وأحب من صدر حياته أن يكون من الذين قال الله سبحانه فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[فصلت: ٣٠].

قاتل فى صفوف الوطنيين ضد الاحتلال والاستبداد الفرنسى، حتى حُكم عليه بالإعدام ففر بدينه إلى عدد من الأقطار الإسلامية، ثم استقر بمصر، التى فتحت ذراعيها لجهاده وتقواه وعلمه وورعه، وبادته حباً وتقديراً حتى أصبح شيخاً للأزهر الشريف. وتمثيل حى لوحدة العرب والمسلمين وتجسيداً لضرورة التكامل العربى الإسلامى.

نسب شريف:

فمن أسرة جزائرية «شريفة» يرتفع نسبها إلى الأمراء الأدارسة، بالمغرب، جاء والده،.. ومن أسرة تونسية اشتهرت بالعلم والفضل والتقوى، جاءت والدته.

وفى مدينة «نفطة»، من أعمال «الجريد» بجنوب القطر التونسى، ولد الشيخ الفاضل «محمد الخضر حسين»، فى ٢٦ رجب سنة١٢٩٣هـ، ١٦ أغسطس سنة ١٨٧٦م. وفى هذه المدينة كانت نشأته الأولى، التى تأثر فيها بأبيه، وبخاله السيد محمد المكى بن عزوز، الذى كان من كبار العلماء، وموضع احترام رجالات الدولة العثمانية يومئذ، وله مؤلفات علمية معروفة.

وفى هذه النشأة الأولى «بنفطة»، حفظ شيخنا القرآن الكريم، وألم بجانب من الأدب والعلوم العربية والشرعية.

وعندما وصل إلى الثانية عشرة من عمره، انتقل مع أسرته إلى تونس العاصمة،

وفى عام ١٣٠٧هـ (١٨٨٩م) التحق بجامع الزيتونة، حيث تقدم فى تحصيل العلم، وظهرت علامات نبوغه فى علوم العربية وعلوم الشريعة، وتجلى ذوقه الأدبى فى الإنشاء وفى التذوق.

قلم ولسان:

ونال شهادة العالمية فى سنة ١٣٢١هـ (١٩٠٣م) وأصبح من علماء الزيتونة، وأنشأ فى نفس العام مجلة [السعادة العظمى] التى كانت رائدة المجلات العلمية والأدبية فى بلاد الشمال الإفريقى يومئذ، فلفت الأنظار إلى قلمه ولسانه، فلقد كان خطيباً ومحاضراً إلى جانب كونه أديباً وشاعراً وكاتباً.

وتولى سنة ١٣٢٤هـ (١٩٠٥م) قضاء مدينة بنزرت ومنطقتها، إلى جانب التدريس والخطابة بجامعها الكبير. وفى يونيو ١٩٠٦م ألقى محاضرة عن «الحرية فى الإسلام» فكشف بها عن موقف فكرى ذى مغزى فى بلد يستبد بحكمه المستعمرون الفرنسيون، ثم استقال من قضاء بنزرت وعاد إلى مدينة تونس مدرساً بالمدرسة الصادقية، ثم عُين بعد ذلك مدرساً بجامع الزيتونة.

وفى عام ١٩٠٧م اشترك فى تأسيس «الجمعية الزيتونية» وأخذ على عاتقه الدعوة إلى إحياء قيم الحرية والعروبة فى وطن يخضع لاستعمار ينهب خيراته ويستبد بمقدراته ويمسخ هويته العربية والإسلامية.

وعندما زحفت الجيوش الإيطالية على ليبيا سنة ١٩١١م، وقف الشيخ الخضر بقلمه ولسانه، ومن خلال مجلة [السعادة العظمى] يستنفر الأمة لتقاوم الغزو الإيطالى، ويستنهض الدولة العثمانية -التى كانت تحكم العالم العربى- استخلاص الحق من غاصبيه. ودعا إلى التعبئة العامة وشحذ الهمم، وبعث الروح الإسلامية والبطولات العربية، والتأكيد على الأخوة الإسلامية.

الهجرة إلى الأستانة:

وفى هذه الفترة رفض رغبة الحكومة الفرنسية فى ضمه إلى سلك القضاء فى

المحاكم الفرنسية. وكان لابد من الصدام بين الشيخ المناضل الرافض للتعاون مع المستعمر وبين سلطات الاستعمار الفرنسى فى تونس، فوجهت هذه السلطات إليه فى سنة ١٣٢٩هـ - ١٩١١م تهمة بث روح العداء للغرب، وخاصة السلطات الفرنسية فى تونس، وهى تهمة تصل عقوبتها إلى الإعدام، فهاجر بدعوته وبجهاده إلى الأستانة، مواصلاً سعيه لتخليص بلده وأمته من الاستعمار، معلناً أن ذلك لا يكون إلا بالدعوة إلى الله، وإحياء الوحدة الإسلامية من جديد، وبعث روح الجهاد فى نفوس المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها.

وخلال تجواله ما بين دمشق والقاهرة والأستانة وألمانيا تَعَرف على كوكبة من العلماء الأعلام المناضلين فى سبيل النهضة العربية والإحياء الإسلامى، منهم «الشيخ طاهر الجزائرى»، و«السيد محمد رشيد رضا»، و«السيد محب الدين الخطيب»، و«أحمد تيمور» باشا، وعُين فى دمشق مدرساً للغة العربية فى المدرسة السلطانية (١٩١٢م) ولنشاطه الوطنى الملحوظ اعتقله أحمد جمال باشا الحاكم العام فى سورية لعدة أشهر، حتى أنقذه من السجن تدخل وزير الحربية العثمانى أنور باشا، وبعد خروجه من السجن أوفده أنور باشا إلى برلين مرة ثانية حيث التقى فيها بزعماء الحركات الإسلامية: «الشيخ عبد العزيز جاويش»، والدكتور «عبد الحميد سعيد»، والدكتور «أحمد فؤاد». ثم عاد إلى الأستانة، ثم إلى دمشق.

الاستقرار بمصر:

وكان الشيخ قد سئم كثرة الأسفار وعدم الاستقرار، فاستقر عزمه على أن يستوطن القاهرة فألقى بها عصى ترحاله الذى استمر عشر سنوات، فأقام بالقاهرة سنة ١٩٢١م.

وفى القاهرة أعانه الاستقرار على الإنتاج العلمى المنظم والنشاط الإصلاحى الدائم، فوضحت معالم نضجه فى التجديد والإصلاح وتكونت من حوله حلقات الطلاب والمريدين، وأخذت تأثيرات علمه وإصلاحه تلفت إليه أنظار العلماء

وطلاب الإصلاح.

وتجنس بالجنسية المصرية، ثم تقدم إلى امتحان العالمية بالجامع الأزهر، فحصل عليها بجدارة، وأصبح واحداً من علماء الأزهر الشريف.

ولم يمنعه الانخراط في هيئة كبار العلماء والاشتغال بالبحث والتحقيق عن مواصلة النهوض بمسؤولياته وواجباته كعالم مسلم ومجاهد عربي، وأيضاً رعاية حقوق وطنه الأصلي تونس، وأشقائه الرازحين بالمغرب تحت نير الاستعمار الفرنسي، فأسس سنة (١٩٥٤م) «جمعية تعاون جاليات إفريقيا الشمالية» لتكتيل وتحريك جهود أبنائها في خدمة قضية تحرير هذه البلاد من الاستعمار.

معاركه الفكرية:

وفي سنة ١٣٤٤هـ (١٩٥٢م) بدأت معاركة الفكرية الكبرى دفاعاً عن الإسلام ضد من أرادوا النيل منه، وخاصة من أبنائه. ففي هذا العام أصدر الشيخ على عبد الرازق كتاب «الإسلام وأصول الحكم» فكان أول كاتب مسلم يسعى إلى زرع العلمانية في العقل الإسلامي، وفي واقع المسلمين، بل وإلى علمنة الإسلام، وكان أخطر ما في هذه المحاولة - كما يقول الدكتور محمد عمارة - أنها جاءت في ثوب إسلامي، وتحت رايات إسلامية، ومن عالم فاضل تخرج من الجامع الأزهر، ويشغل منصب القاضي في المحاكم الشرعية الإسلامية.

ورغم أن الشيخ الخضر حسين كان صديقاً للشيخ على عبد الرازق وعائلته، لم يمنعه ذلك بدافع من غيرته على دينه أن يهب دفاعاً عن الإسلام منذ هذه الهجمة العلمانية، فعكف على الرد على كتابه ونقضه، وذلك من خلال كتاب «نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم» الذي نفذت طبعته خلال شهر واحد.

عمد «الشيخ الخضر» في كتابه إلى نهج يغني قارئه عن قراءة الكتاب الذي يرد عليه وينقضه، حتى لا يكاد الرجل يترك من كتاب «الإسلام وأصول الحكم» فقرة إلا أوردها ليناقش صاحبها ولينقدها، ونقض فكرتها أو يبين رأيه فيها، فهو يتبع

أبواب الكتاب باباً بعد باب، ولم يقف الخضر حسين فى نقد مصادر خصمه، عند ما استند إليه الخصم من نصوص واقتباسات بل يعود إلى المصادر التى يقتبس منها الخصم. واستمر فى نقضه لأفكار الكتاب فكرة فكرة حتى بين للناس الباطل الذى يحمله مضمون الكتاب عندما أراد صاحبه أن يجرد الإسلام من طابعه ودوره السياسى.

وأكد فى رده على كتاب «الإسلام وأصول احكم» أن من يقول بما قاله الشيخ على عبد الرازق يخدم الاستعمار خدمة جليلة، فهو يدعو إلى تجريد الإسلام من طابعه ودوره السياسى، وتجريد الدولة فى وطن المسلمين من صبغتها الإسلامية، وتقديم الإسلام ديناً لا دولة، ورسالة روحية لا شرع فيها ولا سياسة، ذلك أن المسلمين فى ظل الاستعمار إذا اهتموا «بما لله»، وتركوا «ما لقيصر لقيصر» كان المستفيد الأول من ذلك هو الأجنبى. لأن قيصر هنا هو الاستعمار.

فعلمنة الإسلام -كما يرى الشيخ- هى فى حقيقتها وبغض النظر عن النوايا تشريع يمنع الحرج والإثم عن ضمير المسلم إن هو خضع لسلطان أجنبى أو سلطة غير إسلامية، ومن ثم فإن اشتراط إسلامية الدولة وإسلامية القانون. هو فى الحقيقة دعوة للمسلمين كى يثوروا فى سبيل حريتهم وتسويد شريعة الإسلام فى الوطن الذى يعيشون فيه، وهذا ما لا يتحمله أو يريده المستعمر أو الحاكم المستبد.

الرد على «طه حسين»:

وفى العام التالى (١٣٤٥هـ - ١٩٢٦م) ظهر كتاب «فى الشعر الجاهلى» للدكتور طه حسين، فرد عليه الشيخ بكتابه «نقض كتاب فى الشعر الجاهلى» فصنع معه ما صنع مع كتاب «الإسلام وأصول الحكم» عندما فنده فقرة فقرة وفكرة فكرة مع أدب رفيع فى الحوار، وبراعة فى الجدل، كشف عن عقل متمكن ومتمرس فى ميدان البحث والمناظرة، يغترف صاحبه من معين من العلم لا يغيض أو ينقص مائة.

وأثبت الشيخ الخضر حسين بما لا يدع مجالاً للشك فى كتابه «نقض كتاب فى

الشعر الجاهلي» أن كل أفكار طه حسين منقولة عن «المستشرق الإنجليزي جب»، واستشهد ضمن استشهداته على بطلان فكرة طه حسين بكتاب نشر بالإنجليزية للمستشرق الإنجليزي «تشارلس ليال» نقض فيه فكرة «جب» وأثبت بطلانها، حيث أقام الأدلة الواضحة والبراهين القاطعة على أصالة الشعر الجاهلي.

تأسيس الجمعيات:

وكان «للشيخ الخضر حسين» دوراً بارزاً في تأسيس العديد من الجمعيات العالمية للتعريف بالإسلام والزود عن حضارته ضد فكرة التغريب، فأسس مع «أحمد تيمور» باشا سنة ١٩٢٥م جمعية الشبان المسلمين، ثم أسس جمعية الهداية الإسلامية، التي ضمت كوكبة من المثقفين ثقافة دينية ومدنية. ومن خلال هذه الجمعية ومجلتها قدم معالم دعوته للإحياء الإسلامي والنهضة العربية وتحرير ديار العروبة والإسلام.

وقد كان «الخضر حسين» من أقدم أعضاء مجمع اللغة العربية بالقاهرة، كما اختير عضواً بالمجمع العلمي العربي بدمشق. وفي سنة ١٣٧٠هـ-١٩٥١م نال عضوية هيئة كبار العلماء.

وعندما قامت الثورة المصرية في ٢٣ يوليو ١٩٥٢م، كان منصب شيخ الأزهر شاغراً، فوقع اختيار الثورة وحكومتها على «الشيخ الخضر حسين» إماماً أكبر وشيخاً للإسلام ووجهاً مشرفاً لهذه الجامعة العريقة تطل من خلاله على عالم العروبة والإسلام، فنهض بالأمانة ما وسعته الطاقة في يوم الثلاثاء ٢٦من ذي الحجة ١٣٧١هـ (١٦سبتمبر٥٢م)، ولديه أمل عريض في برنامج إصلاحي كبير للنهوض بتلك المؤسسة الإسلامية، وجعلها وسيلة لبعث النهضة الإسلامية العظمى، التي يتطلع إليها العالم الإسلامي في جميع القارات. وأعطى الإمام للمنصب حقه. وعندما شعر بضغوط تحول بينه وبين تنفيذ ما يريد، أو تطلب منه تنفيذ ما لا يرضى صمم على الاستقالة في ٧ يناير سنة ١٩٥٤م، قائلاً كلمته

الشهيرة: «يكفيني كوب لبن وكسرة خبز، وعلى الدنيا العفاء». وكان خلال قيامه بواجبات منصبه يقول دائماً: «إن الأزهر أمانة في عنقي، أسلمها -حين أسلمها- موفورة كاملة، وإذا لم يتأت أن يحصل للأزهر مزيد من الازدهار على يدي فلا أقل من ألا يحصل له نقض». ومن ذلك التاريخ تفرغ للبحث والكتابة والمحاضرة، حتى وافاه الأجل، فانتقل إلى جوار ربه مساء يوم الأحد رجب سنة ١٣٧٧هـ ٣ من فبراير سنة ١٩٥٨م. وقد امتد موكب جنازته ما بين ميدان باب الخلق والجامع الأزهر الشريف.

obeikandl.com